الاثنين 29/4/2013 الشيخ الطبيب محمد خير الشعَّال

سلسلة التفسير

سورة الكهف (10)

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، وأفضل الصلاة وأتم التسليم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، اللهم علمنا ما ينفعنا وانفعنا بما علمتنا وزدنا علماً وعملاً متقبلاً يا أكرم الأكرمين. أرنا الحق حقاً وارزقنا اتباعه، وأرنا الباطل باطلاً وارزقنا اجتنابه. نسألك علم الخائفين منك، وخوف العالمين بك وبعد:

نحن في تفسير آيات من سورة الكهف.

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، بسم الله الرحمن الرحيم ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ [الكهف: 28].

جاءت هذه الآية بعد انتهاء الآيات التي تتحدث عن فتية أهل الكهف وعن قصتهم، وقد سبق أن **مغزى قصة أهل الكهف في أمرين اثنين:**

1. **أنَّ هناك بعثاً بعد الموت:** والدليل أن الله تعالى أنام فتيةً ثلاثمائة سنين وازدادوا تسعاً، ثم أيقظهم.
2. **أنَّ الناس كلهم ممتحنون:** كما امتحن فتيةً من أهل الكهف بأن عُرضَت عليهم القصور مع الكفر أو الإيمان مع الكهف فاختاروا الإيمان على أن يكونوا في قصر مع الكفر والضلال.

كل واحدٍ منا سيتعرض لهذين الأمرين فستمتحن في دينك –بلا ريب– حيناً بالمال الحرام، وحيناً بالمنصب الحرام، وحيناً بالاعتداء على الآخرين، وحيناً بالشهوات أو المخاوف، وحيناً تمتحن المرأة بالرجل أو الرجل بالمرأة... فيطلب منك أن تفعل كما فعل أهل الكهف بأن صبروا واختاروا الحق على غيره.

نحن كلنا سنموت وسنبعث، فالذي سيعيننا على هذا البعث وعلى الصمود بالامتحان هذه الآية ﴿ وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ ﴾ .

كلمة السر في صلاح الصالحين وفساد المفسدين، وفي نجاح الناجحين ورسوب الراسبين، وفي ذهاب أهل التقوى يوم القيامة نحو اليمين، وأهل الفجور نحو اليسار، هي **الصاحب**.

كلمة السر في كل خطب الجمعة التي سمعتموها والتي ستسمعونها، وكل الدروس التي حضرتموها والتي ستحضرونها هي الصاحب، فالقرار في يدك.

وفي سبب نزول هذه الآية قصة كما جاءت عن سيدنا سلمان الفارسي رضي الله عنه حيث قال: **جاءت المؤلفة قلوبهم إلى رسول الله صلى الله عليه و سلم: عيينة بن حصن والأقرع بن حابس وذووهم فقالوا: يا نبي الله إنك لو جلست في صدر المسجد ونفيت عنا هؤلاء وأرواح جبابهم –يعنون سلمان وأبا ذر وفقراء المسلمين وكانت عليهم جباب الصوف ولم يكن عليهم غيرها– جلسنا إليك وحادثناك وأخذنا عنك فأنزل الله:** ﴿ وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَلَنْ تَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا ﴾ **حتى بلغ** ﴿ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا ﴾ **يتهددهم بالنار فقام نبي الله صلى الله عليه وسلم يلتمسهم حتى أصابهم في مؤخر المسجد يذكرون الله فقال:** ((الحَمْدُ لِلَّهِ الذِيْ لَمْ يُمِتْنِيْ حَتَّى أَمَرَنِيْ أَنْ أَصْبِرَ نَفْسِيْ مَعَ رِجَالٍ مِنْ أُمَّتِيْ مَعَكُمُ المَحْيَا وَمَعَكُمُ المَمَاتُ)) [تفسير الطبري].

أرواح: جمع ريح.

جبابهم: جمع الجبة وهي العباءة التي تُرتدى فوق الثياب.

الوقفة الأولى:

فيا أيها الإخوة، أرأيتم إلى فتية أهل الكهف كيف اختاروا الكهفَ مع الصلاح على القصر مع الفساد؟ وكيف أن سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وجَّهَهُ ربه لأن يكون مع أهل الصلاح والخير؟ فكذلك أنت أيها المسلم يُطلب إليك لو أنك خُيِّرْتَ بين إيمانك ودينك وصلاحك وسلامة قلبك وأمرٍ مُقابلٍ فاختر إيمانك.

الوقفة الثانية عند قول الله تعالى: ﴿وَاصْبِرْ﴾ .

الصبر: (هو حبس النفس على ما تكره).

فالله تعالى يوجه النبي صلى الله عليه وسلم ومن بعده لأمته أن نُصَبِّر أنفسنا على صحبة الصالحين، فإن صحبة الصالحين لا تروق للنفس؛ لأن فيها انضباطاً، أما مع الفاجرين فلا توجد تلك الحدود، فينبغي عليك أن تحملها بالكُره، وأن تحبسها على صحبة الصالحين.

في صحبة الصالحين لا يوجد ضحكٌ كثيرٌ، أو ضحك بكلام لا يرضي الله تعالى من سخرية واستهزاء وإفك وكذب، أما مع الفاجرين فلا يوجد تلك الضوابط.

في صحبة الصالحين هناك ضوابط للنظر، فإذا كنت معهم في دارٍ فلا يؤذن لك أن تدخل نظرك إلى البيت إلا بعد إذن صاحبه، ولست مأذوناً بالتنقل بين غرفه إلا بإذنه، ولست مأذوناً بأن تطلق بصرك إذا فتح الباب سهواً أو غفلة... أما مع غيرهم فالأمر مختلف.

في صحبة الصالحين ضوابط للجلوس، عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قال: **(ما رُئِيَ رسولُ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ -أو قال: ما رأيتُ رسولَ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ- مادًّا رجليهِ بينَ أصحابِهِ)**.

[أبو نعيم في الحلية].

ولذلك نفسك كنفسي لا تحب الجلوس مع الصالحين.

مرةً كنا في دعوةٍ إلى طعام ذي مائدةٍ طويلة، وقد كان فيها الكثير من المدعوين، ومن بينهم رجلٌ كثير الضحك والكلام، وعدم الانضباط الكامل بآداب الصالحين، فجلس الشيوخ على رأس المائدة، وجلس ذاك الرجل في الطرف المقابل من المائدة، فناداه أحد الشيوخ الأفاضل ليجلس أمامه بغية إكرامه، فقال له الرجل: أنا مرتاح بمكاني فأصر عليه حتى أتى إليه فجلس أمامه، فصار الرجل يحصي لقماته وأصبحت كلماته محدودة ونظراته محبوسة، فلم يحتمل إلا دقائق حتى شعر بالاختناق فانسحب وجلس في آخر المائدة.

من حبس نفسه على صحبة الصالحين فسينال ما يحب، ومن لم يحبس نفسه على ما يكره فلن يصل إلى ما يحب.

صحيح أنك ستغالب نفسك في صحبة هؤلاء القوم لكنهم سيأخذون بيدك لتسير في ممشاهم؛ لأنهم جلساء الملك وسيقرعون بابه فإذا جالستهم أدخلوك معهم.

من الممكن أن يدعو أحدٌ أخاه أو صديقه أو قريبه إلى مجلس فيقول له: أنا أريد الحضور، لكنني أشعر بأني مقيدٌ في الدرس، فنقول له: هذا هو المطلوب من المجلس.

عَنِ الْحَسَنِ البَصْرِيِّ قَالَ: (...**إِنَّ الْمُؤْمِنِينَ قَوْمٌ أَوْثَقَهُمُ الْقُرْآنُ، وَحَالَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ هَلَكَتِهِمْ**...) [الزهد والرقائق لابن المبارك، وذم الهوى لابن الجوزي].

فنحن لسنا أحراراً بل نحن عبيد لله تعالى وفي هذه العبودية كامل الحرية فالقرآن يمنعني أن أنظر كيف شئت أو آكل كيف شئت من حلال أو حرام أو أعتدي على من شئت بحق أو بباطل، المؤمن إنسان أوثقه القرآن لكن هذا الوثاق من أجل تحريره.

قواعد المرور التي تضعها وزارة النقل هي ربط للسائق؛ لكنها لأجل إسعاد كل من يمر في هذه الطرقات، فإذا أراد إنسان أن يتفلت من هذه القيود فسيهلك نفسه ومن حوّله.

عندما قال سيدنا موسى لسيدنا الخضر: ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾ كان جواب سيدنا الخضر ﴿قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ فمن الصعب السير مع الصالحين، مع أنه نبي ومن أولي العزم، ومع ذلك فسيدنا الخضر يحذِّر سيدنا موسى عليه السلام.

اصبروا على الالتزام بأمر الله وصحبة الصالحين وستنالون رتباً عالية، وغالبوا أنفسكم، فما من رجلٍ يغالب نفسه للالتزام بما يفعله الصالحون، وبما يخبره به الصالحون من قول الله وقول رسوله صلى الله عليه وسلم إلا وسيرفع في الدنيا والآخرة.

أذكر أنني كنت صغيراً عندما التزمت مع الصالحين، فكنت إذا سرتُ في الحي الذي أسكنه استهزأ بي الشباب الذين كانوا يجلسون على قارعة الطريق كلما مررت! وكأنهم ليس عندهم شيءٌ إلا أن أكون هزأةً لهم في ذهابي وعودتي.

فأنت عندما ترى ذلك فإن نفسك تحدثك مئات المرات أن تترك هذا الطريق الذي جعلك هزأة لأقرانك، لكن توفيق الله هو الذي يثبتك، فإذا ثبت صار الأشخاص الذين كانوا يهزؤون بك يعتبرونك قدوة ويتمنون أن يصبحوا مثلك أو مثل نصفك.

كم من أخت أرسلت رسالة لتقول: أنها عندما وضعت الحجاب على رأسها صارت سخرية وهزأة بين قريناتها، فاثبتي لأنك على الحق، وأنت المنتصرة في النهاية.

الوقفة الثالثة: ﴿نَفْسَكَ﴾ .

هذا الخطاب لسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم أولاً ومن بعده لنا جميعاً.

أريد أن أسألكم: مَن رأسُ الصالحين في عباد الله تعالى كلهم؟ هو سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، فهل تتوقعون أن يكون أحد أصلح من رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ ومع ذلك قال الله تعالى لأصلح خلقه: صاحبِ الصالحين، وعليك أن تجلس مع الصالحين مع أنك رأسهم.

وهذا يدل على أنه لا يجوز لأحد أن يقول: لا أحد يُؤَثِّر فيني؛ لأنني عاقل وذكي وما جلوسي مع هؤلاء السيئين إلا لأجل التسلية، وجميع أصدقائي يسيرون تحت رأيي، فليس من المعقول أن أدخِّن أو أشرب البيرة أو الخمر أو أنظر إلى الحرام، فهل أنت أصلح وأعقل وأخبر إدارةً أم سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم؟ وقد قال الله تعالى لخيرة خلقه: اجلس مع الصالحين، فلا تعرض إيمانك للتجربة فهو غال جداً، فرُبَّ خطيئةٍ واحدةٍ تهدم العلاقة بينك وبين الله، وربما تدفع ثمنها عشرات من الأعوام من حياتك.

قال ابن القيم رحمه الله: (**قال بعض العارفين: لو أقبل عبدٌ على الله تعالى كذا وكذا سنة، ثم أعرض عنه لحظة، لكان ما فاته أعظم مما حصله**) [الوابل الصيب].

فلماذا تعرِّض نفسك لمخاطر، فلا تأمن على نفسك حتى لو كنت بالستين من العمر، فرسول الله صلى الله عليه وسلم قال الله له: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ﴾ .

ما استطعت أن تكون مع أهل الصلاح في ليلك ونهارك فافعل قال الله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ [التوبة: 119].

أهل المدرسة النقشبندية: اخترعوا اختراعاً سموه الرابطة فقالوا للتلميذ الذي يسلك وينتمي لهذه المدرسة: (**ابذل وقتك أن تكون مع الصالحين ما استطعت، فإذا لم تكن معهم فتخيل أنك معهم، وأنك جالس مع شيخك تنظر إليه وينظر إليك**). فإذا لم تكن معهم بشكل مادي، فكن معهم بشكل روحي، فالمهم أن تبقى مع الصالحين.

هناك فرق بين من يتخيل أنه جالس مع سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ومع الصالحين، وبين من يتخيل أنه يحضر حفلة مع أم كلثوم، فهذا يتخيل وهذا يتخيل، وبينهما فرقٌ كبير، هناك فرق بين من يتخيَّل أنه يجلس في مجلس ذكر، ومن يتخيل أنه في مجلس يقدَّم فيه الخمر ﴿هُمْ

دَرَجَاتٌ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴾ [آل عمران: 163] فتمني المعصية معصية، وتمني الطاعة طاعة.

الوقفة الرابعة: ﴿ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ ﴾ .

من الناس من يدعو الله بالغداة والعشي ولا يغيبون عنه طرفةَ عين، وهناك أناس في نفس الوقت نائمون أو لاعبون للورق، أو يشربون الدخان أو يمضون وقتهم على الصفحات الاجتماعية للإنترنت، أو يتابعون القنوات الفضائية، وهناك من يدعون ربهم بالغداة والعشي.

كلمة يدعون جاءت بصيغة المضارع، والفعل المضارع يحمل معنى التجدد، أي هم يقومون بذلك باستمرار بدون كللٍ أو ملل، يريدون أن يزيدوا قرباً من الله تعالى.

أحد الإخوة الشباب ممن يحضر معنا من عشرين سنة كل اثنين وخميس صائم.

أحد أطباء جراحة القلب صائم عمره كله إلا يوم الجمعة، وقد قاموا معه بمقابلة سألوه فيها: إذا رأيت الدم وأنت في غرفة العمليات ألا تشعر بالدوار؟! فقال: لا؛ لأنني اعتدت.

أحد الإخوة من ثلاثين سنة وهو لا يُفوِّت أربع ركعات قيام الليل لا في حرٍّ ولا بردٍ ولا فحص ولا مرض ولا أزمة ولا بلاء.

أحد الإخوة قال لي: جدتي عمياء، قاربت الثمانين، لها في كل ليلة ثمان ركعات تهجد.

يجب أن تحاول أن تكون من هؤلاء، فإن لم تكن منهم، فكن معهم، ففي يوم من الأيام سيأخذونك باتجاههم، فإن لم تذهب باتجاههم، وماتوا ومتَّ، ذكروك عند الله وقالوا لله يوم القيامة: اللهم كان ذاك يجلس معنا فشفِّعنا فيه.

وبالمقابل، إذا كنت تجلس مع الفاجرين فستكون معهم يوم القيامة، وإن غبت عنهم فسيطلبونك.

لا يمنع الإسلام أحداً من اللعب أو المزح أو الضحك، لكن يمنع الإنسان أن يستغرق وقته كله في اللعب؛ لأننا لم نُخلق من أجله.

﴿ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ﴾ .

أي مخلصين لله تعالى في طلبه، لا لأجل أن يمدحهم أحدٌ أو يذمهم أحد، بل هم مخلصون له في قلوبهم.

﴿ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ ﴾ .

أحياناً الأستاذ يقول للطلاب في المدرسة: اجعلوا أبصاركم نحوي وإياكم أن تغفلوا عني؛ لأن الكلام مهم جداً، فالله سبحانه يقول لسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم: إياك أن تغفل عن الصالحين طرفة عين، فاجعل كل جوارحك باتجاه الصالحين، وإياك أن تلتفت إلى غيرهم، وإذا كانت عينك لا تلتفت فمِنَ الأولى أن لا يلتفت رأسُك وكذلك جسمك، أما أن يكون إنسان ليس مع الصالحين ولا يحضر معهم، فهو في خطر كبير.

قال لي أحد الأئمة: دخلتْ جنازةٌ إلى المسجد فصليتُ عليها، ثم وجدت شاباً يبكي بكاء شديداً فاقتربتُ منه لأواسيه، فقال لي: أنا لا أبكي لأن عمي مات، لكنني أبكي؛ لأنه لم يدخل المسجد إلا في هذه الساعة!!.

﴿ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا ﴾ .

كان إما مقصراً مع الله تقصيراً شديداً بشكل كامل، وإما متجاوزاً للحد في الابتعاد عن الله عز وجل ابتعاداً دائماً.

هذه الآية خلاصتها أن تكونوا مع الصالحين ما استطعتم إلى ذلك سبيلاً، فإنِ استطعتَ أن لا تُفارقهم البتة فافعل، وإن لم يكن فاجتهد ما استطعت أن تكون قريباً منهم.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

والحمد لله رب العالين.